قراءة نقدية في إعلام التنمية

د: ليلى بولكعيبات
جامعة قسنطينة -3

الملخص:

تشكل وسائل الاعلام أحد العوامل المحفزة على إحداث التغير في المجتمع، هذه العلاقة حاول الكثير من الباحثين في الاتصال البرهنة على وجودها من خلال دراسات أصبحت شائعة منذ خمسينيات القرن الماضي حول علاقة الاعلام بالتحديث.

و أقدم راسة في هذا الشأن انجزها لازارسفيلد و ليرنر لصالح إذاعة صوت أمريكا في خمسينيات القرن الماضي " تجاوز المجتمع التقليدي ".

كما أن " روجرز " قدم عملا حول انتشار الأفكار و التحديث و هي نظرية أثارت الجدل حول أهمية وسائل الاعلام لاسيما في الدول المتخلفة.

ثم أخذت هذه المسألة منعطفا مهما مع " ولبور شرام " الذي انجز عملا شهيرا من خلال كتابه " الاعلام والتنمية "و ذلك بطلب من اليونسكو في سبعينيات القرن الماضي.

إن هذا المقال يتعقب تطور البحث في العلاقة بين وسائل الاعلام و مسألة التنمية والتحديث " من حيث مدى امكانية استفادة الدول النامية من تلك الجهود العلمية.

الكلمات المفتاحية: التنمية، الأفكار المستحدثة، المجتمع التقليدي.

Subject:

Media is one of the factors driving change in society. Many researchers have tried to communicate the existence of this relationship through studies that have become common since the fifties of the last century on the relationship of media modernization.

The most recent study by Lazarsfeld and Lerner in favor of Voice of America in the 1950s is "Overcoming Traditional Society".
Rogers also provided work on the spread of ideas and modernization, a theory that has raised controversy about the importance of the media, especially in underdeveloped countries.
This issue took an important turn with "Walbur Shram", who accomplished a famous work through his book "Media and Development" at the request of UNESCO in the 1970s.
This article traces the evolution of research into the relationship between the media and the issue of development and modernization "in terms of the extent to which developing countries can benefit from these scientific efforts.
Keywords : Development, New Ideas, Traditional Society.

1ـ مقدمة :

يبدو أن الذين انكبوا على تناول موضوع وسائل الإعلام بالبحث والدراسة سلموا جميعا بوجود تأثير لوسائل الاتصال على الذين يتعرضون لها.

إلا أن اختلافات عميقة، قد ظهرت بين الباحثين حول نوع و عمق التأثير الذي تحدثه وسائل الاتصال في الناس أي في اتجاهاتهم و سلوكاتهم .

و لهذا فان التطورات الكبرى في الاتصال التي حصلت خلال القرن العشرين هي التي لفتت الانتباه إلى ضرورة جعل هذا النشاط موضوعا لعلم مستقل، وهو علوم الإعلام والاتصال، حيث طرح الباحثون أسئلة حول التأثيرات المحتملة لهذه الوسائل على المجتمع.ويرى "ديفلين" أن تقييم طبيعة و تأثير الإعلام تتركز على ثلاثة أسئلة محورية:

- ما هو تأثير المجتمع على وسائل الإعلام؟ وما هي الظروف السياسية و الاقتصادية والثقافية التي جعلت وسائل الإعلام تمارس عملها بالشكل الذي هي عليه الآن؟
-كيف يحدث الإعلام؟ و هل يختلف في الجوهر و المبدأ أم يختلف فقط في التفاصيل الخاصة بالاتصال الأكثر مباشرة بين الأفراد ؟
- ماذا تفعل وسائل الاتصال في الناس؟ هل هي تؤثر فيهم نفسيا و اجتماعيا وثقافيا ؟

و يذهب "ديفلين " الى القول بأن التركيز و الاهتمام في البحث انصب على السؤال الثالث أكثر من السؤالين الأول و الثاني[1].

1. الرهان على تكنولوجيا الاتصال للتحديث:

أفضل من عبر عن هذا البعد " مارشال ماك لوهان Marchal Mac Luhan "، فهو الذي فسر لنا تطور التاريخ الإنساني من خلال متغير أدوات الاتصال، حيث كان يقول :" أن الرسالة هي الوسيلة " و كان ينظر إلى الوسائل التقنية التي ابتكرها الإنسان على أنها امتداد للحواس.

ومن خلال دراسة "ماك لوهان" لحجم تأثير إدخال الوسيلة الإلكترونية على الثقافة والعادات والتعليم، انتهى الى صياغة مجموعة من النتائج منها:

- أن تكنولوجيات الاتصال تشكل عاملا حاسما لتغيير المجتمع. و بمعنى آخر ، أنه إذا أردنا احداث تغيير في المجتمع، و نقله من وضع قديم إلى وضع جديد، فإنه من اللازم إدخال وسائل اتصال تناسب الحال المراد تحقيقها. [2] و بالرغم من أن محاولة تفسير كيفية حصول التغير الاجتماعي بالاعتماد على عامل معين باعتباره شرطا كافيا، لم تعد تثير فضول الباحثين في ضوء الاعتراف و التسليم بتعقد الحياة الاجتماعية و تنوعها وخصوبتها.

إن مصدر قوة نبوءة "ماك لوهان" تكمن في الاعتماد على تلك الحقائق التاريخية التي تشير الى وجود تزامن بين التحولات الكبيرة في وسائل الاتصال و التحول في شكل الحياة الاجتماعية في مراحل من تطور المجتمع البشري.

فقد كان الاتصال الشفوي ميزة من ميزات "مجتمعات الصيد "بينما الاتصال عبر الكتابة كان ميزة من ميزات المجتمعات الزراعية، في حين الاتصال عبر وسائل الإعلام هو سمة من سمات مجتمع المدينة التي احتضنت الصناعة. و بصورة أكثر واقعية، فإن عصر وسائل الإعلام قد بدأ في مستهل القرن العشرين بظهور و انتشار الفيلم و الراديو والتلفزيون بين عدد كبير من الناس وكانت وسائل الإعلام هذه هي التي بدأت مرحلة الانتقال العظيم التي نعيش تجلياتها اليوم.

و يمكن القول أن الدراسات حول دور وسائل الإعلام في تغيير بنية العلاقات الاجتماعية و الثقافية مرت بثلاث مراحل هي:

- المرحلة الأولى و تمتد من الأربعينيات إلى الستينيات و هي الفترة التي شهدت وثبة كبيرة في تطور الدراسات الاعلامية و تميزت بالاعتقاد في القدرة المطلقة لوسائل الاتصال على التأثير.
- المرحلة الثانية و تمتد من الستينيات إلى السبعينيات و تميزت بالاعتقاد في أهمية المجتمع و قدرته على المقاومة و الانتقاء لمضامين وسائل الاتصال.
- المرحلة الثالثة بدأت بعد السبعينيات التي شهدت مراجعات كبيرة في مسار العلوم الانسانية وفي ميدان الاتصال تميزت بالميل الى اعتناق فكرة تعقد العلاقة بين المجتمع و وسائل الاعلام.

و لم يعد خافيا على أحد أن انقلابات كبيرة أحدثتها وسائل الاتصال الجماهيري و بشكل خاص التلفزيون. ويمكن تحليل العلاقة بين وسائل الاتصال والتغير الاجتماعي و الثقافي عبر المجالات الآتية:

2. قلق إزاء الترويج للعنف:

سعى " جورج غيربنر George Gerbner، و هو أحد أهم المختصين في ميدان الاتصال الجماهيري في أمريكا، للتصدي لمسألة العنف في التلفزيون، حيث اعتبر ذلك مكيدة من الماسكين بزمام السلطة لتحسيس عامة الناس بوجود أخطار تترصدهم و أنهم في حاجة إلى من يحميهم، أي أن وسائل الإعلام تستخدم كأداة للتخدير و ليس للتنبيه. و ينطلق " غيربنر " في بلورة هذه الفكرة من كون وسائل الاتصال الجماهيري، و لاسيما التلفزيونية جزء من ذلك التيار الكبير للثقافة المعاصرة، بل هو ذلك التيار نفسه. و يرى " غيبنر " أنه لا فائدة من التمييز الكلاسيكي بين الإعلام و التسلية. حيث أن التسالي بشكل خاص البرامج الدرامية تربوية إلى حد بعيد. إن التسالي المتلفزة تقدم أرضية لالتقاء كل مكونات الشعب، ذلك أنها تشكل تيارا متواصلا من الانطباعات التي تمس مختلف جوانب الحياة و المجتمع، و يذهب إلى القول بأننا لم نشهد لحد الآن كل الطبقات و الشرائح و الأعمار تتقاسم إلى هذا الحد الثقافة نفسها و الآفاق نفسها [3] .

لكن السؤال الأهم هو: هل العالم الذي يتحدث عنه التلفزيون هو عالم وهمي لا تربطه روابط بالحقائق الاجتماعية و السياسية ؟ إن التعرض المتكرر لمشاهد العنف يمكن أن يعتبر بمثابة مراجعة عقلية أو تكرار معرفي cognitive rehearsal لتثبيت هذه المشاهد بتفاصيلها في ذاكرة الفرد مما يقوي و يدعم في القوائم المعرفية العدوانية aggressive cognitive scripts لسلسلة الأداءات و الأحداث عنده، مما يؤدي الى احتمال إقدامه على العنف في مواقف مشابهة إلا أن هذا متوقف أيضا على وجود مهارات بدنية و عوامل أخرى. إن تقليد العنف بواسطة المشاهدين الصغار يمكن أن يحدث إذا ما تم في المشاهد التليفزيونية بوسائل طبيعية كالرفس و الضرب بالأيدي، لهذا أيضا فنمط العنف الذي يظهر في هذه المشاهد يتوقف تقليده على مدى المهارات الموجودة لدى المشاهد و نوع استجاباته و كذا احتمال قيامه بتقليده. فإذا ما شاهد طفل ما محبط بشدة من تفاعلاته الاجتماعية قدرا كبيرا من العنف التليفزيوني – و لم تكن معلوماته التي يتلقاها عن نبذ العدوان كحل لهذه المشكلات الاجتماعية غير كافية كي تساعده على كف عدوانه – فإن ذلك الطفل سوف يقلد ما قد شاهده، و قد يكون هناك طفل آخر يعاني من القدر نفسه من الإحباط، و مشكلة سوء التفاعل الاجتماعي و تعرض للقدر نفسه من مشاهد العدوان، إلا أنه كان قد تعلم استراتيجيات بديلة من أبويه أو أقرانه للتعامل مع الإحباط – أو لم يلق تشجيعا على تقليد النماذج العدوانية التي يراها في مشاهد العنف التليفزيوني – هذا الطفل لن يقلد النماذج التي يراها في هذه المشاهد.[4]

و يرى " غيربنر"، أن الذين يشاهدون التلفزيون يميلون إلى تقبل ما يبثه على أنه حقيقي و بذلك يتصرفون كضحايا مما يجعلهم قابلين للتلاعب و مطيعين . و مشاهد العنف التي تظهر في كل البرامج ، حسب "غيربنر" لا تنتج العنف بصورة مباشرة، و لكن بالعكس تنتج حالة اللاأمن و بالتالي العودة والانكفاء نحو القيم المحافظة للمجتمع[5].

و هكذا فعلى عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين، و رجال الأخلاق من أن المشاهد العنيفة تؤدي إلى اكتساب سلوك عنيف، فإن " غيربنر" يذهب إلى النقيض من ذلك، بالزعم أن هذه المشاهد تؤدي وظيفة و هي الحفاظ على الوضع القائم في النظام الاجتماعي.

و هكذا فإن الدراسات التي استغرقت وقتا طويلا، وأخذت جهدا كبيرا من الباحثين، انتهت إلى نتائج غير يقينية بل متناقضة.

أي أننا لا نزال بشأن هذا الموضوع في نقطة البداية، بعد ثلاثين سنة من العمل الجاد.

3. نشر الأفكار و تجاوز المجتمع التقليدي :

لفت " أوغبيرن " في كتابه " التغير الاجتماعي " إلى مشكل وتيرة التغير ، حيث أن تقبل التغيير في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية ليس على نفس الدرجة، فالتغير في الجانب المادي في الحياة أسرع منه في الجانب اللامادي. إن هذه الظاهرة مثيرة للنقاش، وهي غير متناقضة مع التحليل الماركسي للتغير الاجتماعي. و في البلدان المتخلفة يتجلى اللاتكافؤ في التغير بين الجانب المادي و اللامادي بصورة واضحة، حيث لم يؤد نقل التكنولوجيا والتحديث في مختلف مظاهر الحياة المادية إلى تغير مناسب في القيم و السلوك. و هو ما أدى إلى ظهور عوائق تمنع بناء تنمية حقيقية. و مهما يكن " فإن علم الاجتماع الحديث في أشكاله العلمية يميل مع ذلك إلى رفض الفكرة التي تقول بوجود سبب مهيمن لحدوث التغيير الاجتماعي. و تميل في الوقت نفسه إلى الاعتراف بتعددية أنماط التغيير " [6].

إن الدراسات حول الحملات التربوية و السياسية و الاشهارية أو غيرها التي تطرقت إليها وسائل الاتصال الجماهيري قد سلطت الضوء على الصعوبات التي تواجه_تحويل الخطاب الى اتجاهات و سلوكات لدى الجمهور. و هكذا, فان الدراسات حول و سائل الإعلام انتهت إلى خلاصة مؤداها أن وسائل الاتصال الجماهيري تمنح لأولئك الذين يسيطرون عليها القدرة على "التلاعب" بعقول الذين يتعرضون لها أو الذين تستهدفهم؛ حيث تعيد ترتيب الأولويات لديهم.

غير أن المتلقين لا يبدون سلبية إلى هذه الدرجة القصوى. فهناك ما يشير إلى أنهم يقاومون الضغوط من خلال عملية الغربلة و التعرض بانتقائية للبرامج سواء تعلق الأمر باختيار الرسائل أو إدراكها أو الطريقة التي يتم بها حفظها. وهذا السلوك يجعل

من الأفراد و الجماعات التي يتشكل منها الجمهور تتجنب المحتويات التي لا تتفق ظاهريا مع قيمها و معاييرها.

ولعل النتائج الأبرز في هذا الشأن هي تلك التي أكدتها "فرق مكتب Bureau of applied social research "من جامعة كولومبيا (نيويورك). و هو مكتب كان ينشطه بشكل خاص " بول لازارسفيلد p. Lazarsfeld " و قد انتهت هذه الفرق إلى نتائج مؤداها أن تأثير وسائل الاتصال الجماهيري ليس فعليا إلا عندما يكون بواسطة شبكات الاتصال والتأثير الشخصي الموجودة على مستوى جماعات اجتماعية؛ حيث يبدو لهذه الأخيرة تأثير محسوس أكثر من وسائل الاتصال الجماهيري. و للتأثير على النوايا الانتخابية، أكدت دراسات " لازارسفيلد " حدود تأثير وسائل الاتصال الجماهيري، عكس ما كان سائدا في المرحلة التي أجريت فيها الدراسة، وأعادت الاعتبار للمجتمع بشكل عام ولدور" قادة الرأي "على وجه التحديد والذين يحتكون بوسائل الإعلام أكثر من غيرهم، حيث أنهم مستهلكون كبار لمضامين هذه الوسائل كما أنهم يقومون بتعديل الرسائل التي ينقلونها إلى غيرهم، أي الأفراد الذين يقعون تحت سيطرتهم . هذه الدراسات سمحت ليس بتغيير النظرة الى وسائل الإعلام فحسب بل أدت إلى نظرية" التدفق على مرحلتين" للمعلومات التي وضعت حدا لفكرة السيطرة المطلقة و غير المحدودة لوسائل الاتصال الجماهيري.

إن هذه الفرضية، كانت قبل كل شيء في مجال العمل السياسي و "الخيارات الانتخابية The people's chose "للازارسفيلد ،بيرلسون ،غوديه)، إلا أنها اختبرت بنجاح في قطاعات أخرى " التأثير الشخصي" لـ" كاتز و لازارسفيلد ".[7]

هذه النتائج المعتبرة، كان لها كبير الأثر، إذ أنها تميل بالفعل إلى وضع تأثير وسائل الاتصال الجماهيري على علاقة بظواهر من نوع آخر، وبشكل خاص التفاعل داخل الجماعات الصغيرة كما تبين أن الاستنتاجات تلك التي تقول، إن الجماعات الصغيرة على وشك فقدان أهميتها على المستوى المجتمع الصناعي المتقدم أو مع ظهور المجتمع الجماهيري و تفكك النسيج الاجتماعي كانت متسرعة. لقد أكدت دراسات " لازارسفيلد " أن المجتمع لم يمت و أن شبكة العلاقات الاجتماعية تحدد محتوى الاتصال و ليس

العكس. و إذا كان من الطبيعي طرح أفكار جديدة عبر وسائل الاتصال الجماهيري قد لا يلقى القبول الحسن لدى الجماعات الصغيرة في بعض الحالات. إلا أنها تستقبل بارتياح من طرف شبكات الاتصال على مستوى هذه الجماعات. إن وسائل الاتصال الجماهيري، يمكن أن تلعب دورا في الإبداع أو بالأحرى في تنظيم الأفكار حول الموضوعات التي تتحدى الجمهور "Moles " [8].

لكن من الذي يقوم بالتغيير ؟ إن القول بأن الرجال هم الذين يصنعون تاريخ شعوبهم وأن أفعالهم و قراراتهم هي التي تحدد مصائر مجتمعاتهم يقودنا إلى الحديث عن" النخبة " ودورها في التغيير. كان "باريتو" يقول أن النخبة تتشكل من أولئك الذين يظهرون كفاءات استثنائية.[9]

هناك عدة عوامل تجعل اختراق وسائل الاتصال الجماهيري أمرا صعبا في البلدان السائرة في طريق النمو :

- فعلى مستوى البنية التحتية للاتصال، لا تزال الكثير من دول الجنوب تعاني من ضعف شديد؛ حيث تفتقد للتغطية بالإضافة الى نقص الكوادر المؤهلة ما يجعلها في حالة تبعية واضحة.
- - و على مستوى الاستقبال، هناك ضعف ملحوظ في القدرة الشرائية لدى عامة الناس، و بالتالي، فإن الاشكال الذي تواجهه الدول النامية هو كونها متخلفة في وسائل الاتصال. و هو ما يضعها في حالة تبعية كبيرة. و قد تناول " هيربرت شيلر " موضوع الهيمنة من طرف الولايات المتحدة على السوق الدولية في الاتصال بفضل قوتها المالية و التقنية. و بسبب هذا الضعف المزدوج، فإن وسائل الإعلام الجماهيري لا تمس الجماهير البعيدة عن الحواضر الكبرى التي تستقطب وسائل الاعلام على ضعفها الى جانب جهود توطين التنمية. و أما تأثيرها فهو أكثر وضوحا في البؤر التي تتجه نحو التصنيع و على الشرائح الاجتماعية الأكثر تعرضا لتلك الوسائل.

إن الـدول المتخلفـة أو السـائرة في طريـق النمـو تعـاني مـن تفكـك في البنيـة الاجتماعية التقليدية بسبب العوامل الخارجية التي أدت الى اقتلاع أشكال الممارسات الاجتماعية السابقة على المجتمع الحديث. وقد أدى ضعف الاتصال الجماهيري في هذه المجتمعات الى صعوبة في توطين العناصر الثقافية البديلة.(10)

اليوم، أغلب البرامج التي تبثها وسائل الإعلام الجماهيري يتم إعداد الجزء الكبير منها، في المجتمعات الصناعية المتقدمة. إنها تعالج نوعا من مشاكل غريبة تماما عن المجمعات التقليدية. ومن هذا المنطلق، فإن وسائل الإعلام الجماهيري، تبدو كوسيلة للقهر والاغتراب وليس كوسيلة لتعزيز القيم السائدة؛ حيث أن الأشكال الثقافية التقليدية تجد نفسها في وضع دفاعي من أجل البقاء.(11)

وفي ضوء ذلك، إنها تؤثر غالبا في اتجاه اجتماعي و سياسي يدعو أو يحرض على قلب الأوضاع، هذا الدور ينشط أو يتعطل بحسب الظروف، عن طريق الرقابة السياسية التي تمارس عليها بشكل عام الحكومات التي قلما تسمح بالتدفق الحر للمعلومات.

و عليه، نجد في البلدان السائرة في طريق النمو نوعا من التعايش بين وسائل الاعلام الحديثة و الأشكال القديمة للاتصال. ففي المدن التي تحولت إلى أقطاب للتنمية وبؤر للتغيير تنشط بها وسائل الاتصال الجماهيري بمحتوى يدفع نحو اكتساب اتجاهات جديدة اما بحسب أجندة أعدت للنخبة السياسية أو الطبقة المترفة لتلعب دور المحفز و المحرض على تبني قيم جديدة. أما في المناطق البعيدة عن بؤر التنمية، فإننا نجد استمرار لظواهر مشابهة لـ" التدفق على مرحلتين "، حيث تبرز القيادات و الزعامات الروحية.

و عليه، فإن الحملات التي يتم القيام بها، في البلاد السائدة في طريق النمو بواسطة وسائل الإعلام الجماهيري ، تفتقد للفعالية المطلوبة لتحقيق الهدف إلا إذا استندت إلى معرفة جيدة بشبكات العلاقات الاجتماعية التي تحدد خارطة الاتصال و التواصل بين الأفراد .

الخلاصة:

تشكل وسائل الاعلام أحد العوامل المحفزة عن إحداث التغير في المجتمع. و قد سعى الكثير من الباحثين في حقل الاتصال الى البرهنة على وجودها من خلال دراسات أصبحت شائعة منذ خمسينيات القرن الماضي.

و قد شكلت نتائج تلك الدراسات نقطة الارتكاز لإطلاق بعض التجارب في التنمية في الدول المتخلفة.

و قد اقتنعت المنظمات الدولية و الاقليمية بدور الاعلام في تفعيل التنمية بكل أشكالها و لهذا اهتمت بإصدار التوصيات في هذا الشأن.

المراجع:

1 - ملفين ل.ديفلير, نظريات وسائل الإعلام. ت/ كمال عبد الرؤوف, الدار الدولية للنشر و التوزيع، القاهرة, 1993, ص 58.

2- La sociologie (les dictionnaies Marabout université) , Paris 1972 , T2 , p 392- 393

3- Domenach (Jean- Marie) , violence et communication , Unesco , 1980 , p 144 .

4 - ت . هارولتز جيليرت، طرائق البحث العلمي في المجالات العلمية ، ترجمة / المركز الثقافي للتعريب و الترجمة، القاهرة، 2009، دار الكتاب الحديث، ص 204 – 205 .

5- op cit ; p 146 .

6-محمد الجوهري و آخرون، ميادين علم الاجتماع، دار المعارف ، ط 3 1974، ص 310 .

7 – أرمان و ميشال ماتلار، تاريخ نظريات الاتصال ، ترجمة / نصر الدين لعياضي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2005 ، ص 58- 61

8- Lohisse (Jean) ; La communication , Editions De Boeck Université , Bruxelles ,2006 ,p 58 .

9- ROCHER(GUY) . le changement social ,éditions HMH ,1968, p 129 .

10- نصر الدين لعياضي،وسائل الاتصال الجماهيري والمجتمع،دار القصبة للنشر، الجزائر، 1999، ص 30 .

11- إريك ميغريه، سوسيولوجيا الاتصال و وسائل الاتصال ، ترجمة / موريس شربل ، جروس برس، طرابلس، لبنان، 2009، ص ص 323 – 329 .